شبهات «ول يورانت» تجاه النبي الخاتم ﷺ

بقلم:
د. محمد محمد العاصي
أستاذ مشارك بكلية العلوم والآداب
جامعة نزوى- سلطنة عمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

والصلاة والسلام على خير خلق الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد،،

فيأتى هذاالبحث تتمة للسلسلة التى وعدت بها، وأزمعت على تحقيقها فى إطار دراسة متكاملة – على حلقات– تفنيدًا لشبهات المستشرق الإنجليزى "ول ديورانت"، في موسوعته: قصة الحضارة، ومما ينبغى لى أن أنوه به أنه قد صدر منها بحثان:

الأول: الإعلام بتفنيد شبهات " ديورانت " حول الإسلام: مقدمات ضرورية[1]

وقد تناولت فيه:

- ترجمة " ول ديورانت ".
- التعريف بأعمدة مدرسة الاستشراق الأمريكي.
- التعريف بموسوعة " قصة الحضارة " من خلال لمحة وصفية لأهم ما تضمنته.
- الإشارة إلى مواطن الإنصاف عند " ديورانت " كمقدمة ضرورية قبل الولوج في ساحة عرض الشبهات وتفنيدها.

الثانى: شبهات "ول ديورانت" حول القرآن الكريم عرض وتفنيد[2].

وقد اشتمل على عرض وتفنيد الشبهات الآتية:

- الشبهة الأولى: زعم ديورانت أنه – صلى الله عليه وسلم – هو الذي ألف

(١) منشور بمجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، ٦٨٥ – ٧٦٢ ، العدد الثانى والعشرون، عام ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، مطبعة حنون بالغربية.

(٢) منشور بمجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، ٧٦٧ – ٨٤٥ ، العدد الثالث والعشرون، عام ١٤٢٥ – ٢٠٠٤م، مطبعة حنون بالغربية.

القرآن.

- الشبهة الثانية: وتتعلق بجمع القرآن وترتيب سوره.
- الشبهة الثالثة: وتتعلق بلغة القرآن.
- الشبهة الرابعة: وتتعلق بقضية عصوم لفظ القرآن وخصوص السبب فيه.

وهالذا أقدم البحث الثالث بعنوان:

شبهات "ول ديورانت" تجاه النبي الخاتم – صلى الله عليه وسلم- عرض وتفنيد

وقد اقتضت خطة هذا البحث أن يحتوى على مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة:

مقدمة: بها عرض لهيكل البحث، وطريقة التناول والمعالجة.

المطلب الأول: "ديورانت" وطريقة التناول

ويشمل:

أولًا: ملاحظات توضيح اتجاهات.

ثانيًا: جو العرض ..... والفصول الأربعة.

المطلب الثاني: شبهات "ول ديورانت" حول معالم شخصية النبي – صلى الله عليه وسلم- ويشمل:

أولًا: عرض الشبهات.

ثانيًا: تفنيد شبهات "ديورانت" من خلال بيان:

البعد الأول: حلمه عليه الصلاة والسلام

البعد الثاني: كان – صلى الله عليه وسلم- رابط الجأش

البعد الثالث: كان – صلى الله عليه وسلم- واثقًا متيقنًا بربه معصوما بالوحي

المطلب الثالث: شبهة "ول ديورانت" حول الإسراء والمعراج: عرض وتفنيد

ويشمل:

أولًا: عرض الشبهة

ثانيًا: التفنيد..... ببيان:

- رؤى الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف
- ديورانت..... بين أسلافه وأذنابه.
- أبعاد الشبهة
- الإسراء والمعراج حقيقة مؤكدة بأدلة دامغة منها:
  - الدليل الأول: سؤالان لـ "ول ديورانت"
  - الدليل الثانى: حديث الإسراء بين لسانين.
  - الدليل الثالث: دليل عقلى على إمكان هذه المعجزة.
  - الدليل الرابع: العلم الحديث يؤيد الإسراء والمعراج.

خاتمة: وبها أهم النتائج التى توصل إليها البحث.

المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

هذا: وقد تحريت الأمانة فى العرض، وقدمت الأدلة العقلية على النقلية فى التفنيد، واستخدمت الثوابت الأكاديمية فى البحث، ورجعت إلى مصادر الكتب حتى أستبين القضية موضع البحث. واستخدمت المنهج التكاملي الذى يشمل: المنهج الوصفى والاستنباطى والنقدى.

وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك فى ميزان حسناتى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا.

المطلب الأول

"ديورانت" . . . وطريقة التناول

ويشمل:

أولًا: ملاحظات توضح اتجاهات:

- **الملاحظة الأولى**
- **الملاحظة الثانية**
- **الملاحظة الثالثة**
- **الملاحظة الرابعة**

ثانيًا: جو العرض...والفصول الأربعة

أولا: ملاحظات توضح اتجاهات:

بدأ "ول ديورانت" موسوعته التاريخية فى الجزء الذى سماه: عصر الإيمان فى المجلد السابع بباب عنون له بـ: "محمد" -صلى الله عليه وسلم- يندرج تحته فصول.

وقبل عرضنا للفصول، لنعايش أجواءها، لنا عدة ملاحظات تقودنا إلى عدة اتجاهات.

الملاحظة الأولى:

أن "ديورانت" قدم الحديث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم- قبل حديثه عن القرآن الكريم وعن انتشار الإسلام..... وهذا يوضح لنا الاتجاه السائد عند "ديورانت" وعند كثير من المستشرقين العدوانيين فى اعتقادهم القائم على أمرين اثنين:

أ- أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- مؤسس دين الإسلام

ب- وأنه مجرد عبقرى أو ذكى ذكاء حادًا يصل إلى حد الألمعية فى زعمهم.

الملاحظة الثانية:

زعمه الدائم الواضح على صفحات هذا الباب الذى تناول فيه شخصية النبى الخاتم - صلى الله عليه وسلم-، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- مجرد عظيم أسس امبراطورية عظيمة؛ ولذا فدراسة سيرته - فى زعمه- إتمام لدراسة سير العظماء. بدا ذلك من أول حديثه حين ربط بين وفاة "جستنيان" عام ٥٦٥ م ومولد الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعدها بخمس سنوات، مصورًا القضية أن عظيمًا قد خلف عظيمًا.

يقول ديورانت:

"توفى جستنيان فى عام ٥٦٥ وهو سيد امبراطورية عظيمة، وبعد خمس سنين من

وفاته ولد محمد – صلى الله عليه وسلم– فى أسرة فقيرة فى إقليم ثلاثة أرباعه صحراء مجدبة قليلة السكان"[1].

ولقد خط ديورانت لنفسه هذا المسلك، وسلكه، على ما سيأتى بعد.

الملاحظة الثالثة:

يظهر "ديورانت" فى بعض المواقف كمفكر منصف حر، يرفض ترديد كل اتهام، ومع أنه قد أخطأ فى بعضها – على نحو ماسيأتى– إلا أنك تجده قد وضع نفسه فى موقف المدافع عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– أمام من اتهمه – زورًا وبهتانًا– بالصرع، حيث يصف حال الرسول – صلى الله عليه وسلم– أثناء تلقيه الوحى بقوله:

"وقد كان يصحبه فى بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس، وتلك حالة كثيرًا ما تحدث مع هذه النوبات، ولكننا لا نسمع أنه عض خلالها لسانه، أو حدث ارتخاء فى عضلاته كما يحدث عادة فى نوبات الصرع، وليس فى تاريخ محمد – صلى الله عليه وسلم– ما يدل على انحطاط قوة العقل التى يؤدى إليها الصرع عادة، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة فى الجسم والروح والزعامة كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر

وقصارى القول أنا لا نجد دليلًا قاطعًا على أن ما كان يحدث للنبى – صلى الله عليه وسلم– كان من قبيل الصرع، ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يفتن أى مسلم مستمسك بدينه"[2].

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، المجلد السابع، ١٣/ ٦ ، طبعة خاصة لمكتبة الأسرة عام ٢٠٠١م من مكتبة النهضة المصرية .

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت، المجلد السابع، ١٣/ ٢٦.

تعليق:

ولست أدرى: هل الحرص على بث السم فى العسل هذا هو ديدن المستشرقين العدوانيين عموما، أم أن ضميرهم يغفو حينا ويصحو حينا آخر. ومهما يكن من أمر: فإنا نحمل الأمر– ابتداء– على حرية التفكير فى قضايا جزئية تقود بإجمالها إلى فساد النظرة الكلية.

الملاحظة الرابعة:

وفى مجالها تجدر الإشارة إلي أن عرضى – فى هذا البحث – للشبهات التى أثارها "ديورانت" تجاه النبى الخاتم ﷺ ثم القيام بتفنيدها .. لا يحول بينى وبين التنبيه إلى وجود كثير من الأخطاء التى صححها المترجم، ووقف له فيها بالمرصاد، حتى أثقل الهوامش والحواشى[1].

مما يجعلنى أشيد – من خلال هذا البحث– بهذا الجهد المبذول فى الترجمة، ولن يذهب بى الشطط حين أقرر أن هذا الباب أفضل أداء للمترجم عن غيره من الأبواب مما يوجب علي الباحث أن يتمم ما بدأه المترجم، ونتناول بالتصحيح والتفنيد ما تركه.

أقول: لعل هذه الملاحظات تميط لنا اللثام عن الجو العام للعرض، وتوضح اتجاهات المستشرق السابق الذكر، ومنهجه فى إثارة شبهاته تجاه النبى الخاتم – صلى الله عليه وسلم–.

ثانيًا: جو العرض.... والفصول الأربعة

عنى "ديورانت" بإظهار جوانب عدة، فى حديثه عن النبى الخاتم – صلى الله عليه وسلم–، وبدا ذلك جليًا من خلال ما تناوله فى هذه الفصول.

(١) للاطلاع على ذلك، راجع –على سبيل المثال– المجلد السابع، جـ١٣، هوامش ص: ٨، ٩، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣ .....إلخ.

الفصل الأول[1]: عنوانه: جزيرة العرب.

وفيه نجح "ديورانت" فى وصف معالم هذه الجزيرة، وكيف كان العربى يتعامل مع أجوائها ليكيف أوضاعه معها.

ومن وصفه هذا قوله: "وبلاد العرب أكبر أشباه الجزائر فى العالم.... وهى هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلًا من البحر الأحمر، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارًا سهلًا فى أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسى"[2].

الفصل الثانى: بعنوان: محمد -صلى الله عليه وسلم- فى مكة[3].

وفيه تتبع أهم المواقف للرسول - صلى الله عليه وسلم- فى الفترة التى قضاها فى مكة المكرمة مثل: زواجه من السيدة خديجة وتحنثه فى غار حراء،، وبداية نزول الوحى عليه، ومالقيه من أذى..... إلخ.

الفصل الثالث: محمد -صلى الله عليه وسلم- فى المدينة(٤).

وفيه وصف يثرب من حيث الموقع والأهمية..... ثم تناول أهم الأحداث التى وقعت بعد هجرته -صلى الله عليه وسلم-.

الفصل الرابع: انتصار النبى(٥) -صلى الله عليه وسلم-

تناول فيه وصف أهم الأحداث فى العامين الأخيرين قبل انتقاله - صلى الله عليه وسلم- للرفيق الأعلى.

وبعد: فإن ما ذكرته فى هذا المطلب هو بمثابة إشارات موجزة لمحتوى المواطن ذات العلاقة بقضية بحثى تمهيدا لعرض ما احتوته من شبهات، ثم القيام بتفنيدها ووضعها فى ميزان النقل والعقل.

---

(١) بين دفتى ص٦- ٢٠، من المجلد السابع فى: قصة الحضارة.
(٢) قصة الحضارة، "ديورانت"، المجلد السابع، ١٣/ ٧.
(٣) بين دفتى ص٢١- ٣١.
(٤) بين دفتى ص٣٢- ٤٠.
(٥) بين دفتى ص٤١ - ٤٧.

المطلب الثانى

شبهات "ول ديورانت"

حول معالم شخصية النبى ﷺ

عرض وتفنيد

ويشمل:

أولًا: عرض الشبهات

ثانيًا: التفنيد

أولا: عرض شبهات "ديورانت: تجاه معالم شخصية النبى -صلى الله عليه وسلم-:

جاءت بأقوال صريحة لا لبس فيها ولا غموض، ولا تحتمل تأويلًا، - زعم ديورانت أن معالم شخصية النبي-صلى الله عليه وسلم - تتحدد فى عدة أمور منها:

١- الزعمه أنه - صلى الله عليه وسلم- كثير التهيج، سريع الغضب، يرتاع من حوله حين يراه.

وقد اتضح زعمه هذا فى قوله:

"وكان سريع التأثر، ميالًا إلى الانقباض، سريع التفكير، وكان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله. (١)"

٢- زعمه أنه - صلى الله عليه وسلم- دائم القلق.

٣- زعمه أنه - صلى الله عليه وسلم- عصبى المزاج، متقلب الأحوال بين المرح وكسوف البال.

وذلك قوله:

"وكان قلقا، عصبى المزاج، يرى أحيانًا كاسف البال، ثم ينقلب فجأة مرحًا كثير الحديث(٢)"

ثانيًا: تفنيد شبهات "ديورانت" تجاه معالم شخصية النبى -صلى الله عليه وسلم-:

أراد ديورانت أن يتحدث عن معالم شخصية النبى -صلى الله عليه وسلم-، فافترى عليه أنه:

١- سريع الغضب ، شديد التهيج

(١) قصة الحضارة، ديورانت، المجلد السابع، ١٣/ ٢٣.

(٢) السابق، ١٣/ ٤٥.

٢- دائم القلق

٣- عصبى المزاج

وتلك فرية، ما فيها مرية، فلم يكن -صلى الله عليه وسلم- سريع الغضب بل كان شديد الحلم.

ولم يكن شديد التهيج ..... بل كان ثابتًا رابط الجأش

ولم يكن دائم القلق ..... بل كان واثقًا متيقنًا بالله

ولم يكن عصبى المزاج ..... بل كان مصونا بالوحي

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل وبيان من خلال التذكير ببعض شمائل النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم وذلك على نحو ما أبينه فى الأبعاد الآتية:

البعد الأول: حلمه -صلى الله عليه وسلم-

يأتى حديثى - فى هذا المقام - عن حلمه - صلى الله عليه وسلم- ردًا على ما زعمه ديورانت أنه - صلى الله عليه وسلم- كان شديد الغضب، يرتاع من حوله إذا غضب أو تهيج(١).

على أن مرادى هنا ليس إثبات الحلم للنبى - صلى الله عليه وسلم- فقط، وإنما قصدى أن أثبت للنبى صلى الله عليه وسلم :

الحلم ومابعد الحلم:

فإذا كان الحلم أقل أنواع الاحتمال ، والصبر على المكاره يليه رتبة ودرجة، فإن العفو وترك المؤاخذة يعلو ويرتقى فوق الجميع. ولئن تفرقت هذه الأخلاق فرادى بين بعض الناس، فإن النبى - صلى الله عليه وسلم- قد اجتمعت فيه.

يقول القاضى عياض: "الحلم حالة توقر وثبات عند الأسباب المحركات، والاحتمال: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. وأما العفو فهو ترك المؤاخذة. ولاخفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو -

(١) المجلد السابع ١٣/٢٣.

صلى الله عليه وسلم- لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا[1]".

تعليق:

هكذا وضح القاضى عياض الفروق الدقيقة بين هذه المعانى العميقة، والأخلاق الكريمة ابتداء من الحلم..... ثم العفو..... وقبله الاحتمال، وهى أخلاق متدرجة قلما تجتمع فى نفس بشرية عادية وقد وجدناها مجتمعة فى بشر يوحى إليه.

كما تجدر الإشارة إلى أن الإمام النووى قد رتب هذه الأبواب الثلاثة على هذا النسق لتكاملها مع بعضها البعض، فى سفره القيم: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين.

فبدأ بباب الحلم

وثنى بباب العفو

وثلث بباب احتمال الأذى[2]

ولعل المقام يحتم علىّ أن أعرض نماذج من أقواله -صلى الله عليه وسلم- تحث على الحلم وتبين فضله وأثره:

١- بيانه - صلى الله عليه وسلم- أن الحلم خصلة يحبها الله عز وجل:

وذلك قوله عليه الصلاة والسلام لأشج عبد القيس: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة[3].

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضى عياض اليحصبى ، تحقيق : كمال بسيونى زغلول المصرى، ١/ ٨٦، ٨٧، ط دار الفكر ببيروت، طـ ١ عام ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

(٢) راجع: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للإمام النووى، ص١٧٦، وما بعدها، طـ مكتبة أسامة الإسلامية بالقاهرة، طـ١ عام ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس رضى الله عنهما، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه، حديث رقم ٢٥.

٢- إخباره - صلى الله عليه وسلم- أن الحلم يبعد عن النار.

عن ابن مسعود - رضى الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: ألا أخبركم بمن يحرم على النار، أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل[1].

والحديث الشريف- كما هو واضح- صريح فى بيان أن الحليم: الهين..... السهل.... اللين حرام على النار، وهذا هو الهدف الأسمى لكل مسلم.

٣- شهادة أبى سفيان لحلم النبى - صلى الله عليه وسلم-: بعدما سيق إليه وبعد أن جلب إليه الأحزاب، وقتل عمه وأصحابه ومثل بهم؛ فعفا صلى الله عليه وسلم عنه ولاطفه فى القول: "ويحك ياأبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله" فقال: بأبى أنت وأمى! ما أحلمك وأوصلك وأكرمك[2].

ولنا أن نضع أنفسنا - على سبيل الفرض والمثال- مكان أبى سفيان الذى يتذكر أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ما فعله معه.... يوم الأحزاب وقتله للصحاب، والتمثيل بهم..... وينتظر ما يفعله معه الرسول - صلى الله عليه وسلم- بمنطق العدل. ولكن الرسول الحليم عامله بمنطق الفضل حتى قال أبو سفيان- ولا يملك إلا أن يقول ذلك:- ما أحلمك، "وانظر فى هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم؛ إذ لم يفتقر - صلى الله عليه وسلم- على السكوت..... حتى عفا..... ثم أشفق

ينظر: صحيح الإمام مسلم، ١/ ٤٨، طـ دار إحياء الكتب العربية.

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، وقال: هذا حديث حسن غريب، حديث رقم ٢٤٨٨، كتاب صفة القيامة، ٤/ ٦٥٤، طـ دار إحياء التراث العربى.

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير، حديث رقم ٧٢٦٤، ٨/ ٩ : ١٢، طـ دار إحياء التراث العربى، وكذا: أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة، ٥/ ٣٢، فى حديث طويل عن ابن عباس رضى عنهما، طـ دار الكتب العلمية.

ورحم.... ودعا وشفع[1].

ومن الجانب النظرى إلى الجانب التطبيقى: قد يسول الخيال المريض لـ"ديورانت" ومن لف لفه أن هذه الأوامر النبوية مجرد قواعد نظرية لم يطبقها النبى – صلى الله عليه وسلم– فلنسد الباب تماما حين نقتطف أمثلة نظهر من خلالها الجانب التطبيقى فى حلمه – صلى الله عليه وسلم– وذلك على النحو التالى:

المثال الأول:–

أراد النبى – صلى الله عليه وسلم– أن يعلم الأمة درسًا فى الحلم والأناة وضبط النفس.... حين جاءه أعرابى يطلب منه شيئًا، فأعطاه.

ثم قال: أحسنت إليك؟

قال الأعرابى: لا، ولا أجملت

فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا.

ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه، وزاده شيئًا.

ثم قال: أحسنت إليك؟

قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم–: إنك قلت ما قلت وفى أنفس أصحابى من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك.

قال: نعم

فلما كان الغد أو العشى جاء، فقال – صلى الله عليه وسلم–: إن هذا الأعرابى قال ما قال، فزدناه أنه رضى، أكذلك؟

قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا

فقال – صلى الله عليه وسلم–: مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه،

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضى عياض، تحقيق: كمال بسيونى زغلول ١/ ٨٨.

فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلوا بينى وبين ناقتى، فإنى أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار[1].

هذا الحديث الذى يرفع راية الحلم عمليًا، مع أعرابى أنعم عليه الرسول الحليم ابتداء، ومع ذلك تجرأ، وبدل الشكر على النعمة كفرًا لها، فأزاده الرسول الحليم – صلى الله عليه وسلم– فعرف الأعرابى وشكر.

ونستأنس هنا بتعليق الإمام الشيخ / محمد الغزالى على هذا الموقف حين قال: "إن الرسول الحليم لم تأخذه الدهشة لكنود الأعرابى أول الأمر، وعرف منه طبيعة صنف من الناس مرد على الجفوة فى التعبير والإسراع بالشر، وأمثال هؤلاء لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ولما كانت ظلما... لكن المصلحين العظماء لا ينتهون بمصاير العامة إلى هذا الختام الأليم، إنهم يفيضون من أناتهم على ذوى النزق حتى يلجئوهم إلى الخير إلجاء، ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء.ومثل ذلك لايضن به الواجد الأريب. ولو كان عطاء سخيا فما بذل المال إلى جانب ملك النفس؟

إن الأعرابى الذى اشترى رضاه بما علمت لا يبعد أن تراه بعد أيام وقد كلف بعمل خطير، يقدم فيه عنقه عن طيب خاطر!! [2].

وقد اكتسبه الإسلام بالحلم، ألا ما أفدح خسارة الدعوة – وقتئذٍ– لو عاجلت هذا الأعرابى طعنة سيف أو رمية رمح!!

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع، ٩/ ١٥، ١٦، وقال: وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك. وفى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، عن أبى هريرة رضى الله عنه، حديث رقم ٢٤٧٦، ٣/ ١٥٩، طـ مؤسسة الرسالة ، بدون تاريخ .

(٢) خلق المسلم، الإمام الشيخ/ محمد الغزالى، ١٠٥، طـ دار الكتب الإسلامية بالقاهرة، طـ ١٠عام ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

المثال الثانى:

وفيه أسوق هذا المثال، وسبب اختيارى له ما يأتى:

١- أنه شهادة من أحد أحبار اليهود قبل اسلامه، والفضل ماشهدت به الأعداء.

٢- أنه شهادة عالم..... باحث عن الحق.

عالم: يعرف أن علامة النبوة الحلم والأناة.

٣- أنه إثبات لما اصطلح البحث على تسميته: ما بعد الحلم: إنه الحلم والرفق والأناة.... والعفو..... بل - وبدون مبالغة - جماع الخلق الكريم كله.

وهذا يتضح حين يحكى لنا الحبر اليهودى زيد بن سعنة قصة إسلامه، فيقول:

ما من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد - صلى الله عليه وسلم- حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه، وهما:

يسبق حلمه جهله

ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما

وذات يوم جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول:

لى نفر فى قرية بنى فلان، حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، فأسلموا.

وقد أصابهم جدب وأخشى أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشئ، فعلت، فنظر - صلى الله عليه وسلم- إلى رجل إلى جانبه - أراه عليا- فقال: يارسول الله، ما بقى منه شئ. فدنوت منه وقلت: يامحمد: هل لك أن تبيعنى تمرًا معلومًا إلى أجل معلوم؟

قال: فباعنى، فأعطيته ثمانين مثقالًا من ذهب، فى تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأخذ - صلى الله عليه وسلم- هذا الذهب، وأعطاه للرجل، وقال له: اعدل عليهم وأغثهم.

قال زيد بن سعنه: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة... خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فى نفر من أصحابه فلما صلى على جنازة، ودنا إلى الجدار ليجلس إليه، أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ.

وقلت له: يامحمد، ألا تقضينى حقى؟ فوالله ما علمت بنى عبد المطلب إلا مطلا، ولقد كان لى بمخالطتكم علم.

ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير، ثم رمانى ببصره، وقال ياعدو الله، أتقول لرسول الله ما أسمع، وتصنع به ما أرى؟

فوالذى نفسى بيده لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك.

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم- ينظر فى سكون وتؤدة، فقال: ياعمر: أنا وهو كنا فى حاجة إلى غير هذا: أن تأمرنى بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب..... اذهب ياعمر فاعطه، وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما روعته.

قال زيد: فذهب بى عمر فأعطانى حقى، وزادنى عشرين صاعا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة ياعمر؟

قال: أمرنى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أزيدك مكان ما روعتك!

قال: أو تعرفنى يا عمر؟

قلت: لا

قال: أنا زيد بن سعنة.

قال: الحبر

قلت: الحبر!!!

وقد خبرت فيه علامتين ووجدتهما فأشهدك ياعمر أنى قد رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينا، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم- نبيًا، وأشهدك أن شطر مالى صدقة على بعض أمة محمد - صلى الله عليه وسلم- فرجع عمر وزيد إلى رسول

الله – صلى الله عليه وسلم–.

فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

ولقد شاهد مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– مشاهد كثيرة، ثم توفى فى تبوك مقبلًا غير مدبر(١).

أقول: لعل هذا المثال العملى يؤكد على حلمه – صلى الله عليه وسلم– أمام شدة الجهل حيث تمت كلمة الحق صدقًا وعدلًا، ذلك؛ لأن معرفة الرجال لا تتم عن طريق المراسلة.

يقول الدكتور/ محمود محمد عمارة فى تحليله لهذا المثال العملى.. وفيه تبدو صعوبة الاختبار، ويبدو أيضًا كيف ثبت الرسول –صلى الله عليه وسلم– بحلمه أمام شدة الجهل فكان الانتصار، اقترب الرسول –صلى الله عليه وسلم– من الجدار ليستريح.

فماذا فعل معه زيد؟

١– قبل أن يجلس يهجم عليه

٢– الرسول – صلى الله عليه وسلم– فى كوكبة من أصحابه

٣– ثم أخذ بمجامع ثيابه

٤– رماه بملامح غاضبة

٥– ناداه باسمه المجرد: يامحمد

٦– أنكر عليه تباطئه فى قضاء الدين

٧– أكد بالقسم أن المماطلة انحدرت من عشيرته إليه، والتى لمسها عن خبرة وتجربة لا عن سماع.

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه، رقم ٢٨٨، ١/ ٢٥٣، ١٥٤، طـ مؤسسة الكتب الثقافية.
وكذا البيهقى فى دلائل النبوة، ٦/ ٢٧٨ – ٢٨٠، عن عبد الله بن سلام، طـ دار الكتب العلمية.

٨– تعمد زيد أن يجيء قبل حلول الأجل، ليحبك خطته ليبلغ الجهل منتهاه، ثم لينظر ما يسفر عنه الامتحان!!

إلا أن عمر يغلي كالقدر، ورمى زيدا بنظره كأنها السهم، مهددا بقتله لولا مخافة أن يخسر بقتله حب الرسول –صلى الله عليه وسلم–(١).

الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلم عمر الحلم:

وإذا كان المتوقع أن يعنف الحبر من قبل الرسول – صلى الله عليه وسلم– لكن العتاب اتجه إلى عمر، ليذكره أن الحبر أحسن إلينا ابتداء حين أقرضنا، ثم هو بحاجة إلى موعظة لا إلى سيف، إلى كلمة لا إلى لكمة، أن يسمع الصوت لا أن يضرب بالسوط.

"وكان من الممكن أن يصحب زيدا رجل غير عمر، لكنه – صلى الله عليه وسلم– يحقق العدل فى أسمى معانيه حين يكلف عمر بالذات، ليتخلص من كل مشاعر العداء للرجل ولاء وطاعة للرسول – صلى الله عليه وسلم–، وليعلم الناس أن الحق أكبر دائمًا، وإلا فلو كان الحكم للهوى لكان للرجل مع عمر حساب آخر.

وأسلم الحبر اليهودى..... وقدم إلى رسول الله أوراق اعتماده سفيرًا للحق.

لقد رأى "زيد" رسول الله قبل ذلك..... رآه كما كان أبو جهل يراه: يتيم أبى طالب، لكنه اليوم – وبحلمه – صلى الله عليه وسلم– يراه رسولًا نبيًا.

وإذا كان لكل معرفة حقيقة ومتعة وثمرة، فقد اهتدى زيد إلى الحقيقة بعقله، واستمتع بها بقلبه، وكان من ثمراتها أن استشهد فى غزوة تبوك مقبلًا غير مدبر(٢)"

إنه حلم ليس وراءه وراء، فقد جاء بعد شدة الجهل، فما زادته شدة الجهل إلا حلمًا.

وهذان المثالان – وغيرهما كثير– يبدو من خلالهما الحلم "عمليًا" والذي صدر من

(١) من الذى يغير المنكر، وكيف؟ د. محمود محمد عمارة، ص١٨، ١٨٣، طـ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، طـ٢، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
(٢) السابق، ١٨٤، ١٨٥.

النبى – صلى الله عليه وسلم–.

ومما ينبغى لنا أن ننوه به أن منهج النبى الحليم – صلى الله عليه وسلم- فى تعليم أمته للحلم، لم يأخذ الجانب النظرى من خلال أقوال تبين فضله وأثره فقط، كما أن منهجه ﷺ لم يأخذ الجانب العملى الذى يتبدى واقعًا ملموسًا أمام الأعين، يأخذ بالألباب فقط.

لكنه – صلى الله عليه وسلم–، وتمشيًا مع منهج الإسلام عالج أسباب الغضب حتى يبقى الإنسان حليمًا، وهو مايمكن أن نسميه:

٣- بالجانب الوقائي:

وفى هذا الجانب أرشد النبى – صلى الله عليه وسلم- إلى عدة أمور بها يملك الإنسان نفسه عند الغضب، منها:

أ- الاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ لأنه هو الذى يزيد نار الغيظ للإنسان، فلقد استب رجلان عند النبى – صلى الله عليه وسلم- فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، فنظر إليه النبى – صلى الله عليه وسلم- فقال: إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب هذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم(١).

ب- تغيير الهيئة التى يكون عليها الإنسان حال الغضب: فإن كان قائمًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع.

عن أبى ذر – رضى الله عنه- قال: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- قال لنا: إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع(٢).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، عن سليمان بن صرد، حديث رقم ٢٦١٠، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأى شئ يذهب الغضب، ٤/ ٢٠١٤، ط دار إحياء الكتب العربية.

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه، ٤/ ٢٤٩، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، ط- دار الفكر العربى بالقاهرة.

ومعلوم أن تغيير الهيئة حال الغضب أدعى لعدم الاستجابة لدواعيه، ووقوع ما يندم عليه بعد زوال غضبه.

ج- الوضوء بالماء البارد: فإذا ما تملك الغضب إنسانًا توضأ؛ لأن الوضوء يذهب الغيظ. وهذا ما أكده – صلى الله عليه وسلم- فى قوله: "إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفئ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ"(١).

د- لزوم الصمت حال الغضب: حتى لا ينطق بكلام يندم عليه بعد هدوئه وسكونه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: علِّموا وبشروا ولا تعسروا وإذا غضب أحدكم فليسكت (٢).

فهذا هو العلاج الإسلامى الناجح للغضب..... من خلال توجيهاته – صلى الله عليه وسلم-(٣).

وأخيرًا:

بعد أن ثبت – بمالايدع مجالًا لمرتاب- أن النبى – صلى الله عليه وسلم- كان شديد الحلم:

وقد أمر به، وحث عليه، ورغب فيه..... وهذا هو الجانب النظرى ثم تعامل به، وصار قدوة فيه، ومازاده شدة الجهل عليه إلا حلمًا.....

وهذا هو الجانب العملى من خلال توجيهاته – صلى الله عليه وسلم- على كل هذه الأسباب.

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، ٤/ ٢٤٩، حديث رقم ٤٧٨٤، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ١/ ٢٣٩، طـ المكتب الإسلامى بيروت، بدون

(٣) لمزيد من التوضيح، راجع: من أمراض القلوب وكيف عالجها الإسلام، ص ١٤٠ وما بعدها، رسالة ماجستير للباحث: شوقى عبد الحميد كروش ، بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، عام ١٩٩٣م.

بعد كل هذا...

هل يمكن أن يقبل زعم وادعاء "ديورانت" أو غيره: إنه - صلى الله عليه وسلم- كان شديد الغضب، يرتاع من حوله إذا غضب أو تهيج !؟

وأجيب على هذا السؤال بالنفى.

بل: كان - صلى الله عليه وسلم- شديد الحلم.

ولم تزده شدة الجهل عليه إلا حلمًا.

البعد الثانى: تحليه -صلى الله عليه وسلم- برباطة الجأش

يزعم "ديورانت" أن النبى - صلى الله عليه وسلم- كان شديد التهيج بدرجة يرتاع لها من حوله..... وهى دعوى بلا بينة.

والسؤال الذى أتوجه به إليه: ما الأدلة على ما زعمت؟

ولما لم يسق دليلًا..... فقد انهدمت دعواه ابتداء.

لكننا لن نترك الأمر هكذا حتى نبين أنه - صلى الله عليه وسلم- كان ثابتًا..... رابط الجأش..... ولم يكن شديد التهيج.

ودعوانا هذه تؤكد على صحتها أدلة..... تتمثل فى مواقف عملية لنبينا - صلى الله عليه وسلم- تحدث بها من صاحبه.... بل وأكثر صحبته، ورافقه، وداوم رفقته.

والدليل الأول:

إجماع الصحابة الكرام - رضى الله عنهم- على وقاره - صلى الله عليه وسلم- ووقار مجلسه، وأن مجلسه كان مجلس حلم وحياء واحترام.

وقد جاء فى ذلك أحاديث كثيرة، نقتطف منها حديثًا نحسبه جامعًا، ونسوقه دليلًا:

يقول خارجة بن زيد: كان النبى - صلى الله عليه وسلم- أوقر الناس فى مجلسه، لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه.

وكان كثير السكوت، لا يتكلم فى غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان

ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلًا، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرًا واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات(١).

والحديث - على ما يجمعه ويرشد إليه- واضح الدلالة على وقار النبى - صلى الله عليه وسلم- ووقار مجلسه..... وفيه بيان - كذلك- أنه - صلى الله عليه وسلم- كان ثابتًا رابط الجأش.

الدليل الثانى:

ما يرويه خادمه عن ثباته - صلى الله عليه وسلم- وحلمه ووقاره وعدم تهيجه:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

خدمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: عشر سنين، فما قال لى أف قط، وما قال لى لشئ صنعته لم صنعته، ولا لشئ تركته لم تركته، وكان - صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خلقًا(٢).

أقول:

قد يخفى الإنسان ما بداخله، ويكتم طبعه، ليظهر رباطة جأشه فى جلسة قصيرة، أو فى جلستين..... لكنه لايستطيع أن يداوم فعل ذلك؛ لأن الحكمة قاضية:

أن من أسر سريرة ألبسه الله لباسها.

ومن كتم شيئًا ظهر على فلتات لسانه، هذا إذا كان الإنسان مع من يماثله قدرًا وجاهًا... أو مع من يفوقه فضلًا ونبلًا. لكن عادة الإنسان ألا يعبأ بمن دونه، ولايهتم بمن دون قدره فمن منا - دائما - يهتم بخادمه، أو يعبأ به.... ليظهر أمامه أجمل الصفات؟! اللهم إلا إذا كانت هذه الصفات طبعًا لا تطبعا، فطرة لا

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، ٤/ ٤٧، ٤٨.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه، عن أنس بن مالك -رضى الله عنه-، حديث رقم ٢٣٠٩، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خلقاً، ٤/ ١٨٠٤.

تجملًا. ولم يكن ما يقصه أنس – خادمه – صلى الله عليه وسلم- بعد عشرة عام.... أو عامين... وإنما بعد عشرة عشرة أعوام..... بما يكون فيها من مصاحبة مع كل الحالات.... خيرها وشرها... وقد مرت كل لأواء الدنيا بكل ما فيها..... ومصاعب الدعوة بكل سرائها وضرائها... ومع ذلك: لم يقل لخادمه.... حتى "أف"..... مجرد التأفف العادى لم يحدث. ولم يوبخه فى حالتى: الفعل..... لم فعل والترك..... لم لم يفعل؟!

بل كان وقورًا ثابتًا رابط الجأش عظيم الخلق.

يقول الإمام الترمذى معلقًا على هذا الحديث:

"والحديث فيه بيان حلم النبى – صلى الله عليه وسلم- وحسن عشرته، ورفقه بالخدم وخاصة الصغار، وصفحه عن العقاب على ما وقع من خطأ والتنازل عن الزجر والتوبيخ، فلا غضب، ولا سب، ولا عبوس، ولا عتاب، ولا دعاء بالشر، ذلك لأنه – صلى الله عليه وسلم- كان على خلق عظيم[1].

وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[2].

ولنا أن نتساءل أمام "ديورانت":

هل شديد التهيج الذى يرتاع منه كل من حوله – كما يزعم- يصبر كل هذا الصبر، ويحلم كل هذا الحلم..... حتى مع الخادم..... أم أن هذه الأخلاق فطرته وطبعه، وتلك شيم الأنبياء!!!

ثم: ماذ نقول عن موقف المرأة التى كانت تبكى على ولدها، فقال – صلى الله عليه وسلم- لها: اتق الله واصبرى... فقالت: إليك عنى، إنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه، فقيل لها: إنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، فذهبت إليه ولم تجد عنده

(١) أوصاف النبى-صلى الله عليه وسلم-، للإمام الترمذى، تحقيق: سميح عباس، ص٣٧٣، ط- مشتركة بين دار الجبل بيروت ومكتبة الزهراء بالقاهرة، ط- ٢، عام ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٢) سورة آل عمران ، من الآية ١٥٩ .

بوابين، وقالت له: لم أعرفك، قال: اتق الله واصبرى.... إنما الصبر عند الصدمة الأولى[1].

فهل يصبر شديد التهيج على قول امرأة له: إنك لم تصب بمصيبتى؟!

أم أنه افتراء وكذب على صاحب الخلق العظيم – صلى الله عليه وسلم-.

التوازن بين الحلم والغضب:

لا نريد أن نقول إن النبى – صلى الله عليه وسلم- كان حليمًا هادئًا لينًا... دائما وأبدا.....

وهل يعقل أن يرى – صلى الله عليه وسلم- حرمة تنتهك ثم يكون حليمًا ولا يغضب ! أم أن الأمر يتطلب الحزم والحسم على طريقة:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا... فليقس أحيانا على من يرحم

إنه التوازن بين الحلم والغضب..... إنها الحكمة. بمعنى: وضع السيف فى موضعه.... ووضع الندى –أيضًا- فى موضعه، إنها أفعال الشخصية المتكاملة.... والتى ترويها السيدة عائشة – رضى الله عنها –

فتقول:

" ما رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- منتصرًا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شئ، فإذا انتهك من محارم الله شئ كان من أشدهم فى ذلك غضبًا، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا [2].

وهذا الحديث يبين أن النبى – صلى الله عليه وسلم- لم يكن ينتقم لنفسه أبدًا، ولكنه

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، عن أنس –رضى الله عنه-، كتاب الجنائز،باب الصبر عند الصدمة الأولى، ٣/ ١٩٢، حديث رقم ٣١٢٤.

(٢) متفق عليه ، فقد : أخرجه البخارى فى صحيحه عن عائشة – رضى الله عنها- كتاب الحدود، باب إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله حديث رقم ٦٧٨٦، ١٢/ ٨٦، ط دار المعرفة ببيروت.=

= وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه حديث رقم ٢٣٢٧، كاتاب الفضائل، باب مباعدته –صلى الله عليه وسلم- للآثام واختيار المباح، ٤/ ١٨١٣.

يغضب حين يعتدى على حدود الله عز وجل.

كما أنه - صلى الله عليه وسلم- كان يختار من الأمور أيسرها وأسهلها أداء، ويترك المشقة والتكلف فى أمور الدنيا والآخرة[1].

ويزداد الأمر اتضاحًا بقول السيدة عائشة - رضى الله عنها-:

لم يكن النبى - صلى الله عليه وسلم- بالمتجاوز حده فى الكلام حين يغضب، ولا بمشنع، ولايرفع صوته فى الأسواق حين الشراء، ولا يقابل السيئة بالسيئة إنما يقابلها بالحسنى، ثم يعفو ويصفح عمن أساء إلى شخصه، وذلك راجع إلى حسن خلقه - صلى الله عليه وسلم-[2].

ومن كل ما تقدم ذكره : يظهر أن النبى - صلى الله عليه وسلم- كان ثابتًا.... وقورًا..... يتصرف تصرفات أصحاب الشخصية المتكاملة التى رعاها الله بعينه، ورباها بيديه.... وهى شخصية الأنبياء.

ولعل ما سقته من وقائع عملية وأقوال نظرية يكفى ردًاعلى ما زعمه "ديورانت" أنه - صلى الله عليه وسلم- كان شديد التهيج.

البعد الثالث: ثقة النبى الخاتم بربه، ويقينه بالعصمة الإلهية من أعدائه:

يزعم " ديورانت " أن النبى - صلى الله عليه وسلم- كان دائم القلق، عصبى المزاج وهو بهذا يقصد أن ينسحب هذا الزعم على تعاليمه وسننه - صلى الله عليه وسلم- حتى يفقد الناس ثقتهم فيها.

ولعل هذا المستشرق يتساءل: فماذا يجدى اتباع شخصية قلقة مهزوزة ! عصبية المزاج !!

ومن هنا أرى واجبا على أن أسارع إلى دحض هذا الزعم للتأكيد بالأدلة على أن

(١) راجع: أوصاف النبى -صلى الله عليه وسلم-، للإمام الترمذى، ٣٧٧.

(٢) السابق، ٣٧٥.

النبى الخاتم - صلى الله عليه وسلم - كان واثقًا متيقنًا بالله، متوكلًا عليه، معصومًا بوحيه إليه. وذلك من خلال النقاط التالية:

النقطة الأولى: شجاعة النبوة:

قد يضرب بإنسان المثل فى الشجاعة، لكن شجاعته - صلى الله عليه وسلم- سبقت وفاقت كل مثال؛ فقد كانت شجاعة فى الحق. ولئن قامت نجدة إنسان فى كل مجال، فإن نجدته - صلى الله عليه وسلم- كانت فى العدل. وتلك هى شجاعة ونجدة الأنبياء.

هذا، ويوضح القاضي عياض الفرق بينهما، ومدى اتصافه - صلى الله عليه وسلم- بهما، فيقول:

"وأما الشجاعة والنجدة:

فالشجاعة: فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل.

والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يجمد فعلها دون خوف.

وكان - صلى الله عليه وسلم- منهما بالمكان الذى لايجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفر الأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لايبرح، ومقبل لايدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة، سواه[1] - صلى الله عليه وسلم-.

ويجدر بى هنا أن أسوق مثالًا توضيحيًا واحدًا، وهو: قال عمران بن الحصين: ما لقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كتيبة إلا كان أول من يضرب، ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد، لا نجوت إن نجا.

وقد كان يقول للنبى - صلى الله عليه وسلم- حين افتدى يوم بدر: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقًا (مكيال يسع ستة عشر رطلًا) أقتلك عليها.

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم-: أنا أقتلك إن شاء الله. فما رآه يوم أحد شد أبي

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضى عياض، ١/ ٩٤.

على فرسه على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبى -صلى الله عليه وسلم-: (هكذا، أى خلوا طريقه) وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبى - صلى الله عليه وسلم- فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارًا[1].

وتلك شجاعة فطرية نبوية، أنتقل بعدها إلى هذا اليقين النبوي أيضًا، والذى أستأنس لبيانه بحديث جابر- رضى الله عنه-؛ لأرسخ من خلاله عظم يقينه وثباته وثقته ﷺ بربه عز وجل:

ها هو ذا جابر بن عبد الله يقول:

كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذات الرقاع، فأتينا شجرة ظليلة تركناها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم- فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم- معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال: تخافنى ؟ قال: لا، فقال: من يمنعك مني ؟ قال الله (ثلاثًا) فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم- السيف، وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال: لا، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس[2].

وهكذا تظهر تلك الشجاعة النادرة، وهذا اليقين الكامل فى أحلك اللحظات: السيف مرفوع ، ولم يبق إلا أن يهوى علي النبى الخاتم، ويسأله الأعرابى ساخرًا: هل أحد يقدر أن يمنعك مني ؟

فتأتى الإجابة بيقين ثابت..... الله ..... الله..... الله.

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٥٨، وعبد الرزاق فى المصنف ٥/ ٣٥٦، ٣٥٧، طـ المكتب الإسلامى بالقاهرة.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، عن جابر بن عبد الله -رضى الله عنه-، ٣/ ٣٦٤، ٣٦٥.

وذلك لأن الله يعصمه، ويمنعه، ويحفظه، ويرعاه.

النقطة الثانية: عصمة الله لخاتم أنبيائه:

العصمة الشاملة: إنها الحفظ الكامل من الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم- فى قلبه وعقله وجسده، ولقد تواترت آيات كثيرة تصدع بهذا المعنى، منها:

قوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[3].

- ولما نزل قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ صرف النبى - صلى الله عليه وسلم- الحراسة عنه:

عن عائشة - رضى الله عنها- قالت: كان النبى - صلى الله عليه وسلم- يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ فأخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم- رأسه من القبة فقال لهم: ياأيها الناس: انصرفوا، فقد عصمنى ربى عز وجل[4].

وها هى بعض الروايات التى تؤكد تحقق العصمة الإلهية لنبيه الخاتم:

١- ذكر عبد بن حميد أن حمالة الحطب كانت تضع العضاة (الشجر له شوك) وهى جمر على طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فكأنما يطؤها كثيبًا أهيل: (رمل قد سال).

٢- ذكر ابن اسحاق أنها لما بلغها نزول ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وهو جالس فى المسجد ومعه أبو بكر وفى يدها فهر من

(١) الطور، ٤٨.

(٢) الزمر، ٣٦.

(٣) الحجر، ٩٥.

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه، حديث رقم ٣٠٤٦، وقال: غريب، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة المائدة، طـ دار إحياء التراث العربى بالقاهرة.

الحجارة (ملء الكف) فلما وقفت عليها لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى بصرها عنه، وقالت: ياأبا بكر: أين صاحبك؟ فقد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربته.

٣- عن عمر رضى الله عنه قال: تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فجئنا منزله، فسمعنا له، فافتتح وقرأ: الحاقة[١]، حتى: فهل ترى لهم من باقية[٢].

فضرب أبو جهم على عضد عمر، وقال: انج، وفرًا هاربين[٣].

وليس بعيدًا عنا: ما ضرب الله به على أبصار قريش حين اجتمعوا على قتله، وحمايته من رؤيتهم له فى الغار، وقصته مع سراقة فى الهجرة.... إلخ.

وصدق الله العظيم: (والله يعصمك من الناس).

هذا ولا ينبغى أن ينصرف الفهم إلى تضييق معنى العصمة وحصره فى الحفظ الجسدى إبقاء على الحياة، بل علينا أن نعلم أن العصمة الإلهية لنبيه الخاتم صلى الله عليه وسلم تتسع دائرتها لتشمل أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم.

فلقد " قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كمل فيه طريق البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شئ منها بخلاف ما هو به، ولا قصدا وعمدًا، ولا سهوًا وغلطًا. وإذا قامت المعجزة على صدقه، وأنه لا يقول إلا حقًا، ولا يبلغ عن ربه إلاصدقًا، فالمعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت فيما تذكره عنى، وهو يقول: إنى رسول الله إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ

(١) مفتتح سورة الحاقة.

(٢)الحاقة، ٨.

(٣) هذه الآثار من الشفا، ١/ ٢٦٠، ١٦٢-، وما عزاها المحقق إلى شئ ولم أقف لها على تخريج ومابين المعكوفين من شرح المحقق فى الهامش.

الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١]، وعليه: فلا يصح أن يوجد منه فى هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أى وجه كان " [٢].

ولقد أكد ذلك النبى -صلى الله عليه وسلم- حين سأله عبد الله بن عمرو: أكتب كل ما أسمع منك، قال: نعم، قلت: فى الرضا والغضب، قال: نعم، فإني لا أقول فى ذلك كله إلا حقًا[٣].

المستشرقة ترد على المستشرق:

توقفت باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرته - صلى الله عليه وسلم- حتى وصلت إلى هذه النقطة، وقالت: لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعًا ما خدع نفسه فى حياته، ولو لم يكن واثقًا من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته فى الخالق، وأسلمت [٤].

وهكذا انقادت المستشرقة البلجيكية إلى الإسلام بعد وقوفها أمام لمحة واحدة من لمحات حياته - صلى الله عليه وسلم- متسائلة: هل يخدع نفسه فى حياته ؟ حين يقول إن الله يعصمه، وأسلمت، أما "ديورانت" فلم يلفت نظره هذا، ولعل هذا فيه من أسرار ختام آية العصمة بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾.

النقطة الثالثة: ديورانت يرد بنفسه على نفسه

إذا استأنسنا باللمحة الهادية لدى المستشرقة البلجيكية وإذا كنا قد عرضنا ما زعمه ديورانت حول معالم شخصية النبى - صلى الله عليه وسلم-. فلنترك "ديورانت" الآن يرد بنفسه على نفسه حين يقرر فى نهاية الفصل الذى تحدث فيه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم- قائلًا: "وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر

(١) النجم، ٣، ٤.

(٢) الشفا، للقاضى عياض، ٢/ ١٠٩، ١١٠.

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن عمرو، ١/ ١٠٥، ١٠٦، عن ابن عمر -رضى الله عنه- طـ دار المعرفة ببيروت.

(٤) راجع تفسير الشعراوى، ٦/ ٣٢٩٤، طـ دار أخبار اليوم، طـ١.

فى الناس، قلنا: إن محمدًا – صلى الله عليه وسلم– كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء.

وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه منه أى مصلح آخر فى التاريخ كله. وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق كل، ما كان يحلم به، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم، وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها متفرقة كل منها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة[1].

وبعد:

فهذه شهادة حق صادرة من المستشرق الذى وجه العديد من الشبهات لشخص النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم ، والتى قام هذا البحث بتفنيدها.... ولا أملك تجاه هذه الشهادة إلا أن أذكر الحكمة القائلة: والفضل ما شهد به الأعداء.

(١) قصة الحضارة، ديورانت، ١٣/ ٧.

المطلب الثالث

شبهة "ول ديورانت" حول الإسراء والمعراج

عرض وتفنيد

ويشمل:

أولًا: عرض الشبهة

ثانيًا: التفنيد

أولًا: عرض شبهة "ديورانت" حول الإسراء والمعراج

زعم ديورانت أن رحلة الإسراء والمعراج لم تكن إلا خيالًا مثلما يراه النائم أثناء نومه.

فقد قال: "وخيل إليه – أي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– فى ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس، حيث رأى فى انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل اليهود البراق، فطار به إلى السماء، ثم أعاده منها، ثم وجد النبي – صلى الله عليه وسلم– نفسه بمعجزة أخرى آمنا فى فراشه بمكة. وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين"(١).

وهكذا سحب "ديوارنت" البساط فى أمر الإسراء والمعراج، وحاول تغطية الحقيقة، مصورًا الأمر على أنه خيال فى خيال، رآه المصطفى – صلى الله عليه وسلم- كما يرى النائم شيئًا فى خيالات أحلامه.

وبعد عرضنا لهذه الشبهة، ننتقل إلى الرد والتفنيد بآيات بينات، ونستمد من الله- عز وجل – عونا يقودنا إلى دحض هذه الترهات.

ثانيًا: تفنيد شبهة "ديورانت" حول الإسراء والمعراج

بادئ ذي بدء نقرر أن الاستشراق اهتم بدراسة جوانب حياة النبى – صلى الله عليه وسلم–، وغزواته، ومعجزاته، وأقواله، وأفعاله، وسيرته...الخ.

والحق أن نظرة الاستشراق – كالعادة– أخذت مسارين:

المسار الأول:

رؤية معتدلة، ونظرة حقيقية، بحثت، ونقبت، واهتدت، وقررت الحق الصريح، وهو ما اصطلح البعض على تسميته بالإنصاف واعتدنا تسميته – على ما قررناه قبلًا- الرأى الصحيح: الذى صحت مقدمات البحث العلمى فيه؛ فصحت نتائجه.

(١) قصة الحضارة، ديورانت، المجلد السابع، ١٣/ ٣٠.

المسار الثانى:

رؤية ظالمة مظلمة متعصبة عن جهل مقيت، وحقد أعمى، وطمس للحقائق، وتشويه لها، دونما أدب علمى، أو بحث نزيه، أو احترام للمبادئ العقلية الأولية: كمن قال بصدقه هو وكذب رسالته. وهذا بسبب غرور المستشرق علميًا واعتقاده – ابتداء- بطلان دعوة النبى – صلى الله عليه وسلم– المخالفة لدين المستشرق. وهو بهذا قد "ركب الباطل باعتقاده هذا ركوبًا يحول بينه وبين لقاء الحق. ومهما اجتهد المستشرق فى بحثه بعد ذلك، فإن تلك المقدمة الباطلة التى بدأ بها كافية وحدها أن تضله وتخرج به من زور وباطل إلى زور وباطل. ومهما اجتهد فى الإنصاف بعد ذلك، فتلك المقدمة التى اعتقدها كافية وحدها لإقحامه فى أقبح الظلم، وحمله على أكبر الإثم.

وأى إثم أكبر من تكذيب النبى – صلى الله عليه وسلم– بغير نظر ولا تمحيص، وتلوين حقائق التاريخ كلها بما يلائم ذلك التكذيب: وأى ظلم فى التقدير والحكم أقبح من نسبة الكذب إلى صاحب الدعوة قبل النظر فى دعواه..... حتى إذا نظروا وواجهتهم أدلة صدقة عن يمين وشمال، برأه منصفوهم من تعمد الكذب ليتهموه بالوهم والانخداع فى النفس، كأنه كان مخدوعًا فى نفسه يعتقد أنه رسول، وهو فى الواقع غير نبى ولارسول " (١): وما "ديورانت" عن المسار الثانى ببعيد.

أولًا: رؤى الاستشراق بين الإنصاف والإجحاف

بودنا أن نشير إلى بعض الدراسات الاستشراقية التى تناولت الحياة المحمدية بعين مجحفة، بها كثير من الشبهات والترهات، وهى:

١. حياة محمد، إميل درومنجم، ترجمة: عادل زعيتر، ط دار إحياء الكتب العربية.

(١) الإسلام فى عصر العلم، د. محمد أحمد الغمراوى، ١١٧، ١١٨، بتصرف يسير ، طـ دار الإنسان بالقاهرة، طـ ٤ عام ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢. حياة محمد، واشجتون إرفنج، ترجمة وتعليق: على حسني الخربوطلى، ط دار المعارف بمصر عام ١٩٦٦م.

٣. الرسول، بودلى، ترجمة: محمد محمد فرج، وعبد الحميد جودة السحار، ط لجنة النشر للجامعيين.

وهناك الكثير..... والكثير[١].

ولكى نكون منصفين على طول الخط، فواجبنا أن نشير إلى أن هناك دراسات استشراقية منصفة، تحدثت عن نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم- حديثًا صحيحًا..... ولعل من أهم تلك الدراسات.

حكم النبى محمد - صلى الله عليه وسلم- للمستشرق تولستوي، ترجمة: سليم قبعين، ط الدار المصرية للنشر والتوزيع، ط ٣ عام ١٩٨٧م.

وتجاه هذه الدراسات الاستشراقية المنصفة ألفت نظر الباحثين المدافعين عن الإسلام والمنافحين عن حياضه أن يولوا وجوههم شطرها لدراسة هذه الرؤى بعمق، مع الرد العلمى الحاسم الحازم على المتعصبين. مستعينين برؤى المنصفين منهم لبرد بعضهم على بعض مع تقديم الدليل العقلى على النقلى هنا؛ لأن أكثرهم لايؤمنون بالقرآن دستورًا حتى نرد عليهم من خلاله. ولعل هذا المجال يكون حقلًا خصبًا للدراسات والأبحاث والرسائل العلمية فى الجامعات الإسلامية، وعلى رأسها: جامعة الأزهر الشريف.

ثانيًا: "ديورانت" بين أسلافه وأذنابه:

من أسلاف ديورانت:

د. جوستاف لوبون الذى عرض فى تعليلاته الحضارة العربية والإسلامية[٢] كل

(١) للوقوف على المزيد، راجع: نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى، عز الدين فرج، ط مكتبة الأنجلوالمصرية، بدون تاريخ.

(٢) راجع المزيد:

الأحداث، ولم يعترف لمحمد - صلى الله عليه وسلم- بنبوة، ولا للقرآن بقدسية، فى حين نجد أن من:

شركاء "ديورانت" فى الزعم المدعى - كذبا وبهتانا - أن رحلة الإسراء والمعراج ما هى إلا محض خيال:

المستشرق الفرنسى: لويس أميلي سيديو[١].

والذى يقول عن الإسراء والمعراج:

"إن عروج محمد - صلى الله عليه وسلم- الخارق للعادة قد تم على البراق، الذى هو حيوان عجيب، فانتهى إلى حضرة الله العلي، ولم تكن هذه الرحلة غير ضرب من الرؤى عند أكثر علماء المسلمين[٢].

والمستشرق " بودلي ": الذي ذكر آية الإسراء، ثم علق عليها قائلًا:

وما الحكاية في الغالب إلا خرافة من الخرافات التي تذكر للتدليل على معجزات محمد. وما قال محمد يومًا أنه أتى بمعجزات بل قصها كحديث عن سيرته[٣].

ثم انحدر هذا اللغط من الأسلاف إلى الأخلاف، وظهر بعض أولئك الذين هم: ألسنة عربية وعقول غربية.

أو: عبيد الفكر الغربى.....

أ- مناقشات وردود ، محمد فريد وجدى ؛ تحقيق: د/ محمد رجب البيومى، ص٤١ وما بعدها، ط الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، ط١ عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

ب- فلسفة الاستشراق، د. أحمد سمايلوفتش، ص١٧٦، ١٧٧، ط دار المعارف بالقاهرة، ط ١ عام ١٩٨٠م.

(١) أستاذ التاريخ فى كلية سان لويس، ووزير الدولة الفرنسى للشئون الخارجية إبان فترة الخمسينات. وللمزيد من ترجمته وحياته، راجع مؤلفه: تاريخ العرب العام، سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه، عام ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

(٢) المرجع السابق، ص٧١.

(٣) الرسول : حياة محمد : بودلي ، ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار ، ط مكتبة مصر بالقاهرة ، بدون تاريخ .

الذين كانوا.... ويا للأسف – أشد من المستشرقين هوى وعصبية وعداء سافرًا للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.

ولعل من أشهر هؤلاء (أبو رية)، والذى تولى أكبر حملة ظالمة على نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، ومن أسوأ أعمال هذه الحملة:

أ- الطعن فى حديث الإسراء والمعراج، وجعله من الإسرائيليات، وتوجيه تهمة الجهل للذين يعتقدون صحة ذلك، واعتبارهم من حشوية آخر الزمان.

ب- التكذيب لأحاديث شق صدره – صلى الله عليه وسلم-، ومقارنته بين عملية الصلب عند المسيحيين وعملية شق الصدر عند المسلمين، وقد انبرى للرد عليه وعلى أمثاله العلامة الدكتور/ محمد محمد أبو شهبه[1].

وبعد أن أشرت إلى أن شبهة "ديورانت" هذه حول الإسراء والمعراج: شبهة قديمة جديدة، لاكتها ألسنة كثيرة، أبدأ الخطوة العملية الأولى فى الرد والتفنيد ولما كان الحكم على الشئ فرع عن تصوره؛ فأولى خطوات الرد العملى هنا يكون ببيان أبعاد هذه الشبهة على نحو ما يلى:

ثالثًا: أبعاد الشبهة

أ- يزعم " ديورانت ": صراحة أن الإسراء والمعراج كان خيالًا رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم- كما يرى النائم فى نومه[2].

ب- جبهة أخرى مع المترجم والمحقق: بعدما قال "ديورانت": إن الإسراء والمعراج كان خيالًا، كان المتوقع من المترجم والمحقق أن يردا بأنه كان حقيقة،

(١) فى سفرة القيم: دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، طـ مكتبة السنة بالقاهرة، طـ ١ عام ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
ونود أن نؤكد على أهمية قراءته والانتفاع بما فيه، لكل مسلم ناهيك عن الباحثين والمتخصصين.

(٢) راجع العرض السابق فى هذه الدراسة، وانظر: قصة الحضارة، ١٣/ ٣٠.

ولو بإشارة يسيرة، لكن الواقع غير ذلك. وهأنذا أنقل تعليقهم لأضعه أمامك أيها القارئ الكريم، لننظر معًا فيه، وهو:

(عنى المسلمون بمسألة الإسراء والمعراج، فمنهم من يقول: إن الإسراء كان بجسده وروحه ومنهم من يقول: إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة ومعاوية)[1].

وبالنظرة العادية إلى هذا الرد غير العادى من المترجم نجد أنه ليس ردًا.... وإنما هو خلط وبكل أسف: يفتح بعدًا جديدًا للشبهة، وليس ردًا مستأصلًا لشأفتها.

فهو يقول:

من المسلمين من يرى أن الإسراء كان بالجسد والروح ومنهم من يقول: إن ذلك كان رؤيا حق، ومن هؤلاء عائشة ومعاوية وهذا خلط. كيف ذلك؟

١. الإسراء كان بالجسد والروح..... ما فى ذلك شك، وهو ثابت بالقرآن – وهو دليل قطعى – منكره كافر.

٢. الخلاف الوارد فى أمر الرؤية..... ما يتعلق برؤية الله تعالى (النظر) وليس الرؤيا ← بمعنى الحلم أو ما يراه النائم.

وهكذا زاد المترجم الطين بلة. وبدلًا من الرد..... أو السكوت مطلقًا، خلط الأمور، فزاد الشبهة لبسًا، مما يستوجب وقفة مع المستشرق والمترجم لنثبت أن تلك المعجزة كانت حقيقية ولم تكن خيالًا.

رابعًا: الإسراء والمعراج حقيقة مؤكدة وبأدلة دامغة:

الدليل الأول: سؤالان لـ "ول ديورانت"

١- أنت زعمت أن الإسراء والمعراج كان خيالًا رآه الرسول – صلى الله عليه وسلم- كما يرى النائم فى نومه....

ما دليلك على هذا الزعم ؟

إن لم يكن عندك دليل فهو قول على عواهنه، غير ثابت وإن كان هناك دليل، فلم لم

(١) السابق .

تذكره ليقوي حجتك فى زعمك هذا ؟ وهل يعقل أن يكون لدى أحد دليل دعواه ثم يهمله ؟!! والدعوى بلا بينة – بلغة القضاء – دعوى غير مسموعة.

٢- ثم إذا كان زعمك هذا تبنيه على الاستحالة العقلية فإن هناك فرقًا كبيرًا بين أن يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم-: أنا سريت وأنا عرجت وأن يقول: الله أسرى بي.

فقضية الممكن وغير الممكن هنا مستبعدة بالمقياس البشرى لتدخل القدرة الإلهية... ومع كل ذلك:

الدليل الثاني: حقيقة الإسراء والمعراج:

نشرع – إن شاء الله تعالى- فى بيان حقيقة الإسراء والمعراج من خلال توضيح بعض الأمور التى تنهض دليلًا على أن الإسراء كان بالروح والجسد معًا.

ومن هذه الأمور:

١- حديث الإسراء بين لسانين:

* اللسان الأول:

وأعنى به المصادر الإسلامية الأصيلة التى تواردته بتواتر شديد.

هذا: ولقد وقع اختيارى على هذا الحديث الصحيح الذى اشتمل على كثير من أحداث الإسراء والمعراج فيما يمكن أن يطلق عليه:

حديث الإسراء:

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- قال: أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت، قال جبريل، قيل: ومن

معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بآدم عليه السلام، فرحب بى، ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا – صلى الله عليهما- فرحبا بى، ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف – صلى الله عليه وسلم-، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب بى، ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحب بى، ودعا لى بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ – مريم (٥٧).

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بى، ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، وإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض على خمسين صلاة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟

قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربى، فقلت: يارب، خفف عن أمتى، فحط عنى خمسًا، فرجعت

إلى موسى، قلت: حط عنى خمسًا، قال: إن أمتك لايطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: لم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئته واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: فقلت: قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه[1].

فهذا حديث – كما رأيت– جمع أركان الإسراء والمعراج، يصور لنا أوجه الإعجاز فى الرحلة المباركة.

اللسان الثانى:

لسان المستشرقين، والذى ورد على لسان المستشرق إميل درومنجم، والذى سرد هذه القصة مستخلصة من كتب السيرة، بعبارة قال عنها الدكتور/ محمد حسين هيكل:

إنها عبارة طلية رائعة[2] وعلى أى حال: فعبارات هذا المستشرق عن الإسراء والمعراج جديرة بالتأمل، فهو يقول:

"فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله، وسكنت فيه طيور الليل وسكتت الضوارى، وانقطع خرير الغدران وصفر الرياح، استيقظ محمد على صوت يصيح به: أيها النائم قم، فقام، فإذا أمامه الملك جبريل وضاء الجبين..... فى ثياب

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، حديث رقم ٣٤٩، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات فى الإسراء، ١/ ٤٥٨، ٤٥٩.

(٢) حياة محمد، د. محمد حسين هيكل، ص١٦٣، طـ خاصة المكتبة الأسرة عام ١٩٩٧م.

مزركش بالدرر والذهب، ومن حوله أجنحة من كل الألوان ترعش، وفى يده دابة عجيبة هى البراق..... اعتلاها الرسول وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء متجهة جنوب الشمال. وصحبه الملك فى هذه الرحلة، ثم وقف به عند جبل سيناء حيث كلم الله موسى، ثم وقف به مرة أخرى فى بيت لحم حيث ولد عيسى، وبلغ بيت المقدس، وصلى على أطلال هيكل سليمان ومعه إبراهيم وموسى وعيسى.

ثم صعد محمد سراعًا إلى السموات، وكانت السماء الأولى من فضة خالصة علقت إليها النجوم بسلاسل من ذهب، فألقى محمد التحية على آدم، وفيها كانت صور الخلق جميعًا تسبح بحمد ربها.

ولقى محمد فى السموات الست الأخرى نوحًا وهارون وموسى وإبراهيم وداود وسليمان وإدريس ويحيى وعيسى. ثم ارتفع به إلى قمة سدرة المنتهى، تقوم إلى يمين العرش وتظل ملايين الملايين من الأرواح الملائكية، وبعد أن تخطى فى أقل من لمح البصر بحارًا شاسعة وملايين الحجب يفصل بين كل واحد منها وما بعده مسيرة خمسمائة عام. تخطى حجب الجمال والكمال والسر والجلال..... ثم كان فى حضرة العرش، وكان منه قاب قوسين أو أدنى، يشهد الله بعين بصيرته، ثم أمر الله عبده أن يصلى كل مسلم خمسين صلاة فى كل يوم. فلما عاد محمد يهبط السماء لقى موسى..... حتى انتهت الصلوات إلى خمس.

وذهب جبريل بالنبى فزار الجنة التى أعدت للمتقين بعد البعث، ثم عاد محمد إلى الأرض يحدثهم بما رأى أ.هـ[1].

أقول: وهكذا نجد فى رواية المستشرق "درومنجم" عن الإسراء ما يوافق ما جاء منثورًا فى كتب السيرة، ومبثوثًا فى كتب الحديث الصحيحية مما يؤمن به المسلم فى أمر الإسراء والمعراج.

(١) حياة محمد، إميل درومنجم ، ترجمة عادل زعيتر، ص١١١ وما بعدها.

وعلى أى حال: فتلك محاولة لوضع الإسراء بين لسانين، حتى تتضح الصورة طائرة بجناحين.

٣- هل كان الإسراء والمعراج بكل من الروح والجسد معًا ؟

الحق أنه كان بهما معًا، وهذا ما أكده جمع كبير من علماء السلف والخلف، ومن هؤلاء:

الإمام ابن حجر العسقلانى والقائل فى شرحه على البخارى:

"إن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة بجسده وروحه، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولاينبغى العدول عن ذلك، إذ ليس فى العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل"(١).

وقال الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم:

"والحق الذى عليه أكثر الناس من المتقدمين والمتأخرين ومعظم السلف من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده - صلى الله عليه وسلم-، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، لايعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولااستحالة فى حملها عليه فيحتاج إلى تأويل"(٢).

أما القاضى عياض:

فقد سرد الآراء التى تتحدث عن الإسراء والمعراج، ثم عقب بقوله:

"والحق من هذا والصحيح إن شاء الله: أنه إسراء بالجسد والروح..... وعليه تدل الآية، وصحيح الأخبار، والاعتبار، ولايعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة"(٣).

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، ٧/ ١٣٦، ١٣٧.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، ٢/ ٣٩٠.
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضى عياض، ١/ ١٤٨، مرجع سابق.

أقول: لعل فى أقوال علمائنا ما يجلى الحقيقة كاملة فيما يشبه الإجماع على أن رحلة الإسراء والمعراج كانت بالجسد والروح معًا، فهى رحلة حقيقية، وحادثة واقعية. ونؤيدها هنا بخاطرة للإمام الشيخ الشعراوى عند تفسيره مطلع سورة الإسراء: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾.

حين قال: إنها رحلة محددة..... كل ما فيها محدد بدقة متناهية: الله سبحانه هو الذى أسرى ومحمد - صلى الله عليه وسلم- هو المسرى به وزمان الرحلة ليلًا، وقد نص عليه فى الآية (ليلًا) مع أن الإسراء عند العرب يعنى السير ليلًا، أما السير نهارًا يسمى سرى.

ومكان الرحلة (من وإلى) أيضًا محدد. وهدف الرحلة - كذلك - معروف (لنريه من آياتنا) كل أبعادها محددة.... حتى لايأتى أحد ويقول: إنها رؤيا ولم تكن حقيقة واقعة(١).

٣- الأدلة العقلية على أن الرحلة كانت بالروح والجسد:

بعد تأكيد هذا الإجماع النقلى على أن الرحلة كانت روحًا وجسدًا، ولأن "ديورانت" وأمثاله لا يؤمنون بالأدلة النقلية، فقد وجب على الباحث أن يقدم دليلين عقليين:

الدليل الأول:

أ- لو كان الإسراء مناما - كما زعم ديورانت وأمثاله- لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولا أخذ كل هذا الشد والجذب!

ب- لو كان الإسراء مناما: لما استبعده الكفار ولا كذبوا به!

ج- لو كان الإسراء منامًا: لما ارتد به ضعاف الإيمان !

فمثل هذا من المنامات لا ينكر. أما وقد ثبت منهم ذلك: فقد ثبت - أيضًا- أن خبره

(١) راجع: تفسير الشعراوى، ١٣/ ٨٣٤٠ ومابعدها طـ دار أخبار اليوم، طـ١.

إنما كان عن جسمه وحال يقظته[1].

ويعقب الدكتور البوطى على هذه الأطروحة العقلية بقوله: "إن استعظام مشركى قريش، وتعجبهم للخبر، وسرعة تكذيبهم له، إذ لو كانت المسألة مسألة رؤيا، وكان إخباره إياهم لذلك على هذا الوجه، لما استدعى الأمر منهم أى تعجب أو استعظام أو استنكار، لأن المرئيات فى النوم لا حدود لها، بل ويجوز مثل هذه الرؤيا حينئذ على المسلم والكافر، ولو كان الأمر كذلك لما سألوه – أيضًا- عن صفات بيت المقدس وأبوابه وسواريه بقصد الإلزام والتحدى"[2].

الدليل الثانى:

إن السؤال عن الكيفية: كيف تمت هذه المعجزة، وكيف يتصورها العقل!

فكما تتم كل معجزة غيرها من معجزات الكون والحياة. وكل مظاهر هذا الكون ليست فى حقيقتها إلا معجزات، وكما تتصورها العقول فى سهولة ويسر، يمكن أن تتصور هذه أيضًا فى سهولة ويسر، فالمعجزة كلمة لا يوجد معنى ذاتى عند التأمل والتدبر، وما يراد بها، إنما هو معنى نسبى مجرد، فالمعجزة فيما تواضع عليه اصطلاح الناس: كل أمر خارج على المألوف والعادة.

وكم من المألوف يتطور بتطور الأزمنة والعصور، ويختلف باختلاف الثقافات والمدارك والعلوم. فرب أمر كان قبل فترة من الزمن معجزة فانقلب اليوم إلى شئ معروف ومألوف. بل الحق الذى يفهمه كل عاقل أن المألوف وغير المألوف معجزة فى أصله: فالكواكب معجزة، وحركة الأفلاك معجزة، وقانون الجاذبية معجزة، والمجموعة العصبية فى الإنسان معجزة، والدورة الدموية فيه معجزة، والروح التى فيه معجزة، والإنسان نفسه معجزة، فهو – كما قال العالم الفرنسى "شاتوبريان"! إنه حيوان ميتافيزيقى: أى حيوان غيبى مجهول.

(١) راجع: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضى عياض، ١/ ١٤٨.

(٢) فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطى، ص١٢١، طـ دار الفكر بالقاهرة، طـ ٧، بدون تاريخ.

غير أن الإنسان ينسى – من طول الإلف واستمرار العادة- وجه المعجزة وقيمتها فى هذا كله، فيحسب – جهلًا منه وغرورًا – أن المعجزة هى تلك التى تفاجئ ما ألفه واعتاده فقط!..... ثم يتخذ مما ألفه واعتاده مقياسًا لإيمانه بالأشياء أو كفره بها! وهذا جهل عجيب من الإنسان مهما ترقى فى مدارج المدنية والعلم[1].

ولعل هذا يوضح الإمكان العقلي لهذه الرحلة المباركة مما يدفعنا إلى حديث آخر، وإقامة دليل آخر هو:

الدليل الثالث: العلم الحديث يؤيد الإسراء والمعراج بين القوى الروحية والقوى المادية:

قد يصدق الإنسان فى عالم الروح ما لا يصدقه فى العالم المادى المحسوس، لكن التقدم العلمى المذهل والمتسارع فى هذه الأيام قضى على هذه الفوارق بين القوى الروحية والقوى المادية، وما أهل الإنسان لأن يتحمل من القوى المادية مالم يكن يتحمله قبل إلا من القوى الروحية. .

وإذ يؤكد هذا المعنى ويزيده وضوحًا شيخنا الإمام/ محمد الغزالى حين قال: "والحق أن الحدود بين القوى الروحية والقوى المادية أخذت تضمحل وتزول، وأن مايراه الناس ميسورًا فى عالم الروح ليس بمستوعر فى عالم المادة وأحسب أنه بعدما فرق العلم من أستار عن أسرار الوجود، فإن أمر المادة أضحى كأمر الروح، لا يعرف مداه إلا قيوم السموات والأرض.وإن الإنسان ليقف مشدوها عندما يعلم أن الذرة تمثل فى داخلها نظام المجموعة الشمسية الدوارة فى الفلك، وأنها – وهى هباءة تافهة- تكمن فيها حرارة هائلة، عندما أطلقت أحرقت الأخضر واليابس.

ولقد امتطى الرسول – صلى الله عليه وسلم- البراق، وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرفه، كأنه يمشى بسرعة الضوء، وكلمة "براق" يشير اشتقاقها إلى البرق، أى أن قوة الكهرباء سخرت فى هذه الرحلة. لكن الجسم – فى حالته المعتادة-

(١) فقه السيرة، د. محمد البوطى ١١٩، ١٢٠.

يتعذر عليه النقل فى الآفاق بسرعة البرق الخاطف، لابد من إعداد خاص يحسن أجهزته ومسامه لهذا السفر البعيد.

وما روى عن شق الصدر، وغسل القلب وحشوه، إنما هو رمز هذا الإعداد المحتوم. وعلى ذلك: ففى الإسراء رموز ذات دلالة تدق على السذج، ولقد وقع للرسول – صلى الله عليه وسلم– بشخصه فى طور بلغ الروح فيه قمة الإشراق وخفت كثافة الجسد حتى تفضى من أغلب القوانين التى تحكمه[1].

ولعل ما ذكره الإمام الشيخ/ محمد الغزالى يصلح تمهيدًا للدخول على وجوه تأييد العلم الحديث لإمكان حدوث رحلة الإسراء والمعراج. ونحن إذ نستأنس الآن - بآراء العلامة الجليل الدكتور/ محمد أحمد الغمراوى[2].حين يحاول إذهاب الشبهة من عدة وجوه، يمهد لذلك بقوله:

"لقد اقتضت حكمة الحق سبحانه أن ينسخ ما ألقى الشيطان، أو يلقى من شبهة فى أمر الإسراء والمعراج بما يسر للإنسان من العلم النظرى والتطبيقى فى عصر العلم هذا، والتقدم العلمى التطبيقى مكن من قطع المسافات بسرعة تذهب بشبهة أن الإسراء لم يكن بالبدن، والتقدم النظرى الذى أيدت التجربة نتائجه ذهب بشبهة أن المعراج لم يكن بالروح[3].

(١) فقه السيرة، للإمام الشيخ/ محمد الغزالى، ص١٣٥، ٣٦، طـ دار إحياء التراث العربى ببيروت، بدون.

(٢) عميد كلية الصيدلة الأسبق ، صاحب الاكتشافات العلمية العالمية فى الكيمياء الحيوية، عمل -جانب ذلك- أستاذًا لمادة (آيات الله الكونية) التى ابتكرها بكلية أصول الدين فى مرحلة الدراسات العليا، وهو رائد مدرسة الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة المطهرة.هذا، وللمزيد عن سيرته، وللوقوف على ما كان يدرسه فى الآيات الكونية راجع: سفره القيم: الإسلام فى عصر العلم، تقديم د. عبد الحليم محمود، طـدار الإنسان بالقاهرة، طـ ٤ عام ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٣) الإسلام فى عصر العلم، د. الغمراوى، ص١١١.

وجوه تأييد العلم لإمكان حدوث الرحلة فى زمنها:

الوجه الأول:

سرعة الانتقال بالنفاثات الأسرع من الصوت: إذا علمنا أن سرعة الصوت: كيلومتر فى كل ثلاث ثوانى، فإن النفاثات الأسرع من الصوت مرتين – وليست هى أسرع النفاثات – يستطيع الإنسان بها قطع المسافات من مكة إلى بيت المقدس ذهابًا وإيابًا فيما دون الساعة، ولايجد من ينكر عليه ذلك لو أنه قام بالرحلة ليلًا وأصبح مستريحًا وأضحى يحدث بها الناس.

الوجه الثانى:

سرعة القمر الصناعى فى دورانه حول الأرض، والتى تبلغ ثمانية كيلو مترات فى الثانية. وعلى ذلك: لو اتخذ الإنسان مركبًا له نفس السرعة لقام برحلة الإسراء فى دقائق دون العشر، ولأمكن أن يعود إلى فراشه وفيه دفء.

الوجه الثالث:

سرعة سفينة الفضاء فى رحلتها إلى القمر، وتبلغ نحو اثنى عشر كيلو مترا فى الثانية وعندئذٍ يسمح الزمن بصلاة ركعتين ببيت المقدس قبل العودة إلى مكة كماأخبر الحديث الصحيح أنه – صلى الله عليه وسلم– قد صلاها بالأنبياء[1].

الوجه الرابع:

النظرية النسبية، والتى من نتائجها الرياضية: أنه لو وجد كائن له سرعة أكبر من سرعة الضوء لانمحت أمامه المسافات مهما عظمت، أى: لأمكنه قطعها فى غير زمن. فما علينا لتفسير نزول الملك بالوحى من السماء العلا وصعوده إليها فى غير زمن إلا أن نستنبط من ذلك أن سرعته كانت أكبر من سرعة الضوء. وعروج النبى – صلى الله عليه وسلم– إلى السماء فى معراجه لم يكن ذاتيًا ولكن بواسطة ملك الوحى جبريل، ولذا جاء حديث المعراج بصيغة البناء للمفعول فلم يقل:

(١) نفس المرجع والموضع .

عرجت إلى السماء، ولكن قال: عرج بى.

وإذن: لاتستغرق رحلة العروج من مثل زمننا إلا بقدر ما يستغرقه حديثه - صلى الله عليه وسلم- مع الأنبياء من دقائق معدودة تسمح فى مجموعها بالعودة والفراش لايزال فيه دفء. والعلم يجيز أن تكون هناك سرعة أكبر من سرعة الضوء، وإن كان - إلى الآن- قد جهلها[1].

الرافعى ورأى محترم:

يدعو العلامة / مصطفى صادق الرافعى إلى تفسير كل أوصافه - صلى الله عليه وسلم- على مجموعها بطابع إلهي على حياته الشريفة، ليثبت -من خلالها- للدنيا بكل برهانات العلم والفلسفة أنه الإنسان الأفضل وأنه الأقدر وأنه الأقوى[2].

المعجزة والإيمان:

مع أن الرافعى حاول المقارنة بين معجزة الإسراء والمعراج وبين المنهج العلمى وما وصل إليه البشر حديثًا، لكن الدكتور/ مصطفى الشكعة وقد تابعه الدكتور/ عبد الحليم عويس - وأنا أؤيد هذه الوجهة - اختلفا معه معللين هذا الاختلاف من خلال أن من موجبات الإيمان التسليم بالمعجزات، والتسليم بالمعجزات لايحتاج إلى العلم، فالمعجزة قدرة ربانية عليا تستعصى على قدرة البشر، ويجب أن تقبل كجزء من الإيمان قبل كل شئ..... ولئن كان قد ظهر فى عصرنا من يفكر فى الصعود إلى القمر ومن يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، فذلك شئ خاضع للوسائل والأسباب، وبينه وبين المعجزة ما بين السماء والأرض، ولاسيما وأن المعجزة حصلت فى عصر لا وسائل فيه ولا أسباب[3].

(١) السابق، ١١٢.

(٢) راجع: وحى القلم، الرافعى، ٢/ ٤٢، طـ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

(٣) راجع: دفاع مصطفى صادق الرافعى عن سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، مقال د. عبد الحليم عويس بمجلة الأزهر، ص٩٣٤، ٩٣٥، عدد جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ. أغسطس ٢٠٠٤م.

أقول: وهكذا - فيما أرى- قد اكتملت القضية:

فالدكتور/ الغمراوى اجتهد كثيرًا وأقام الأدلة العلمية التى تجعل إمكان حدوث رحلة الإسراء والمعراج فى الوقت الذى حدده الحديث الصحيح أمرًا ممكنًا.

وقبل أن نطير فرحا بهذا، نجد الرافعى يترفع بنا إلى دائرة أخرى حين يظهر لنا أن من موجبات الإيمان الأولية التسليم بما جاء مع الأنبياء من معجزات..... وأن التقدم العلمى الحديث بينه وبين المعجزة ما بين السماء والأرض، حين نضع فى الاعتبار أن المعجزة التى نتلمس لها دليلًا علميًا الآن حدثت فى عصر لا وسائل فيه ولا أسباب، فالفرق كبير، والبون شاسع.

ألا ما أفضل العلم حين يهدى إلى الإيمان وما أكمل الإيمان حين يهدى إلى العلم.

أرأيت كيف يؤيد العلم الحديث الإسراء والمعراج ثم يعود ليذكرنا أن من مقتضيات الإيمان أن نسلم به قبل العلم وأثناءه وبعده!!

ألا ما أبعد ديورانت وأشباهه عن هذا النبل السامى الذى لايقدرون على فهمه:

الدليل الرابع: نقض الاستدلال

نذكر أننا فى بداية ردنا على "ديورانت" طلبنا دليلًا على زعمه أن الإسراء كان خيالًا. ولم يأت بدليل وإمعانًا فى الرد والتفنيد حين يتوهم متوهم إمكان الاحتجاج بقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[1].

نشير إلى أن القاضى عياض قد عقد فصلًا عنونه بقوله: فصل فى إبطال حجج من قال إنها نوم[2].

وقد رد على ذلك ردًا مفصلًا، نقتطف منه رده على من توهم الاحتجاج بالآية السابقة، حين قال:

قلنا قوله سبحانه (الذى أسرى بعبده) يرده، لأنه لايقال فى النوم: أسرى.

(١) الإسراء، من الآية ٦٠.

(٢) راجع الشفا، ص١٤٩ وما بعدها

وقوله: ﴿فتنة للناس﴾ يؤيد أنها رؤيا عين، وإسراء بشخص، إذ ليس فى الحلم فتنة، ولا يكذب به أحد، لأن كل أحد يرى مثل ذلك فى منامه من الكون فى ساعة واحدة فى أقطار متباينة[1].

د. هيكل..... ورأى غريب:

فى هذا الخضم والمعترك الضخم يفاجئنا الدكتور/ محمد حسين هيكل برأى غريب فى معجزة الإسراء. مهد له بقوله:

ولنا أن نسأل عن حكمة الإسراء والمعراج ما هى؟

وهنا موضع الرأى الذى نريد أن نبديه ولا ندرى أسبقنا إليه أم لم نسبق[2].

ثم يتحدث عن رأيه الذى طار به فرحًا، فيقول: فى الإسراء والمعراج فى حياة محمد – صلى الله عليه وسلم– الروحية معنى سام غاية السمو، معنى أكبر من هذا الذى يصورون، والذى قد يشوب بعضه من خيال الكلمة الخصب حظ غير قليل. فهذا الروح القوى قد اجتمعت منه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها، ولم يقف أمام ذهن محمد – صلى الله عليه وسلم– وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيًا محدودًا بحدود قوانا الممسة والمدبرة، والعاقلة. تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد – صلى الله عليه وسلم– واجتمع الكون كله فى روحه، فوعاه منذ أزله إلى أبده بفضل من الله ومغفرة.

ثم يقول الدكتور/ هيكل:

وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية..... والإسراء بالروح هو فى معناه كالإسراء والمعراج بالروح جمعًا وسموًا وجمالًا وجلالًا. فهو

(١) السابق، ١٤٩، ١٥٠

(٢) حياة محمد، د. محمد حسين هيكل، ١٦٥.

تصوير قوى للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده[1].

تعليق على رأى د. هيكل:

هذا ديدن بعضنا دائمًا، أن ندور فى أمور دائرية، وهى فى الأصل واضحة..... ظاهرة..... تحدث عنها القرآن..... وتواترت بها السنة الصحيحة، ومع ذلك نتلمس لها وجها غريبًا، ونحاول أن نتألفه. وها هو ذا الدكتور/هيكل – أحد القمم الفكرية المصرية العربية – يعتبره استجماعًا ذهنيًا ونفسيًا لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد فى فترة من فترات التألق النفسانى الفذ..... وفى إبان هذا التألق الذى استعلى به على كل شئ استعرض حقائق الدين والدنيا، وشاهد صور الثواب والعقاب.

ولقد نعت الشيخ/ محمد الغزالى رأى الدكتور/ هيكل بالغربة، حين قال: "وللدكتور/ هيكل رأى غريب ..... فالإسراء عنده روحى لا مادى، ولكنه فى اليقظة لا فى المنام، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذى صوره[2].

وإذا كان تعليق شيخنا الإمام الغزالى تعليقًا هادئًا، نجد الدكتور/ محمد سعيد البوطى قد ذهب مذهبًا بعيدًا معتبرًا رأى الدكتور/ هيكل:

١- فرارًا من إلزامات الأحاديث الصحيحة فى معجزة الإسراء.

٢- استمرارًا لنظريته الخيالية عن الرسول –صلى الله عليه وسلم–[3].

أما بعد:

فلعل ما سقناه من أدلة عقلية ونقلية وواقعية يؤدى إلى تراجع السذج فى أوهامهم عن اعتقادهم روحية هذه المعجزة. فالإسراء والمعراج حقيقة وليس خيالًا، معجزة

(١) حياة محمد، د. هيكل، ١٦٥، ١٦٦.

(٢) فقه السيرة، للإمام الشيخ/ محمد الغزالى، ص١٣٥.

(٣) فقه السيرة، د. البوطى، ١١٨، ١١٩.

وليس رؤيا نوم. وهذا ظلم المستشرقين الذين يرون الحق واضحًا، ثم يلفون، ويدورون، والحق الذى لاينكره إلا مكابر هو أن: "النبى -صلى الله عليه وسلم- لم يلق ممن لم يؤمن من المستشرقين إلا ظلمًا، وإن تفاوتوا بينهم فى مقدار ذلك الظلم، ولو كانوا ينكرون الأديان قاطبة، ولايسلمون بوجود الأنبياء والرسل لكان ذلك مفهومًا منهم إلى حد ما، لكنهم يسلمون باليهودية والنصرانية، ويؤمنون بنبوة إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان عليهم السلام.

فليت شعر العلم والعقل ماذا فى الإسلام أو فى القرآن يجعلهم ينكرون نبوة محمد خاصة، فى الوقت الذى يؤمنون فيه بأنبياء كتب العهدين؟ بل فى الوقت الذى يقر أكثرهم بألوهية عيسى – صلوات الله على نبيينا وعليه- لكنهم مستشرقون.

ومستشرقون من الطراز العلمى الحديث"[1].

(١) الإسلام فى عصر العلم، د. محمد الغمراوى، ١٢١.

خاتمة

فى نهاية البحث نؤكد على ما توصلنا إليه من نتائج، ولعل من أهمها:

١- مهد "ديورانت" لإثارة الشبهات حول شخصية النبى – صلى الله عليه وسلم- بالربط الدائم فى حديثه عن سيرته بسيرة العظماء، مؤكدًا أن دراسة سيرته إتمام لدراسة سير العظماء.

٢- من الملامح الرئيسة فى منهج ديورانت فى إثارة الشبهات: خلط السم بالعسل، فمع ما أثاره من شبهات، نجده يدافع أمام من اتهم الرسول – صلى الله عليه وسلم- بالصرع، وكان ذلك فى بداية حديثه، وكأنه يأخذ بلب عقل القارئ قبل أن يقذف سمه فى فكره!!

٣- لم يكن – صلى الله عليه وسلم- شديد الغضب – كما زعم ديورانت- ولم يكن يرتاع من حوله إذا غضب أو تهيج! وإنما كان شديد الحلم والأناة والرفق: حث على الحلم قولًا..... وطبقه فى مواقف كثيرة عملًا!!، وحدد له طرق الوقاية، والتى منها:

أ- الاستعاذة من الشيطان الرجيم

ب- تغيير الهيئة التى يكون عليها الإنسان حال الغضب.

ج- الوضوء بالماء البارد

٤- لم يكن – صلى الله عليه وسلم- شديد التهيج كما زعم ديورانت – بل كان ثابتًا رابط الجأش، ولقد أجمع الصحابة على وقاره – صلى الله عليه وسلم- ووقار مجلسه، وأن مجلسه كان مجلس حلم وحياء واحترام.

٥- أبطل البحث زعم ديورانت – ومن لف لفه- عصبية مزاج النبى ودوام قلقه..... وأثبت أنه – صلى الله عليه وسلم- كان واثقًا متيقنًا بالله، متوكلًا عليه، معصومًا بوحيه إليه، وأنه أرجح الناس عقلًا وأفضلهم رأيًا.

٦- سبقت شجاعته – صلى الله عليه وسلم- وفاقت كل مثال، فقد

كانت شجاعة فى الحق، وكانت نجدته فى العدل.

٧- عصمة الله تعالى لنبيه فى كل الجوانب..... والتى تمثل مطلق الحفظ فى إطار قوله سبحانه ﴿والله يعصمك من الناس﴾

٨- ردت المستشرقة البلجيكية على ديورانت حين وقفت متأملة آية العصمة ﴿والله يعصمك من الناس﴾ وقالت: لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعًا ما خدع نفسه فى حياته، ولو لم يكن واثقًا من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته فى خالقه، وأسلمت. مما يدل على أن الفطرة لو خلى بينها وبين دين الفطرة (الإسلام) بلا عوائق لاهتدت إليه.

٩- تخبط ديورانت كثيرًا حتى ختم حديثه عن النبى - صلى الله عليه وسلم- بعد توجيه الشبهات إليه - بقوله: لقد كان من أعظم عظماء التاريخ.

١٠- حاول ديورانت سحب البساط فى معجزة الإسراء والمعراج فزعم أنها خيال فى خيال لاتمت للحقيقة بصلة، ولم يقم دليلًا على زعمه هذا، فقد البحث زعمه مثبتًا أن الإسراء والمعراج بالروح والجسد من خلال:

أ- الأدلة العقلية: والتى تتلخص فى أنه لو كان منامًا لما كان معجزة، وما استبعده الكفار ولا كذبوه به، ولما ارتد به ضعفاء من أسلم، فمثل هذا من المنامات لا ينكر!

ب- العلم الحديث يؤيد إمكان وقوع هذه الرحلة وفى نفس زمانها من خلال:

١- النفاثات الأسرع من الصوت، وسرعتها كيلو متر فى كل ٣ ثوانى.

٢- سرعة القمر الصناعى فى دورانه حول الأرض والتى تبلغ ثمانية كيلو مترات فى الثانية.

٣- سرعة سفينة الفضاء فى رحلتها إلى القمر، وتبلغ نحو اثنى عشر كيلو مترا فى الثانية.

وعندئذٍ يسمح الزمن بالذهاب إلى الأقصى وصلاة ركعتين فيه كما أخبر الحديث الصحيح بذلك.

١١- تفسر النظرية النسبية إمكان حدوث رحلة المعراج؛ لأن من نتائجها الرياضية: أنه لو وجد كائن له سرعة أكبر من سرعة الضوء لانمحت أمامه المسافات مهما عظمت، أى: لأمكنه قطعها فى غير زمن.

وعلى ذلك: لاتستغرق رحلة المعراج من مثل زمننا إلا بقدر ما يستغرقه حديثه - صلى الله عليه وسلم- مع الأنبياء من دقائق معدودة تسمح فى مجموعها بالعودة والفراش لا يزال فيه دفء.

١٢- محاولة الدكتور/ هيكل تفسير معجزة الإسراء والمعراج طبق نظرية الاستجماع النفسى والذهنى ووحدة الوجود: محاولة غريبة كما نعتها الشيخ الإمام/ محمد الغزالى.

١٣- بل هى: استمرار للنظرية الخيالية التى يبتعد من خلالها عن إلزامات الأحاديث الصحيحة فى هذه المعجزة الكبرى.

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: الرسائل العلمية

١. من أمراض القلوب وكيف عالجها الإسلام، رسالة ماجستير للباحث/ شوقى عبد الحميد كروش، بإشراف أ.د/ محمود محمد عمارة، مخطوطة مودعة مكتبة كلية أصول بالمنوفية، جامعة الأزهر، عام ١٩٩٣م.

ثالثًا: الكتب والدراسات

١- الإسلام فى عصر العلم، د. محمد أحمد الغمراوى، تقديم د. عبد الحليم محمود، ط دار الإنسان بالقاهرة، طـ ٤ عام (١٤١هـ - ١٩٩١م)

٢. أوصاف النبى - صلى الله عليه وسلم-، للإمام الترمذى، تحقيق: سميح عباس، طـ مشتركة بين دار الجيل ببيروت ومكتبة الزهراء بالقاهرة، طـ ٢ عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣. تاريخ العرب العام، لويس أميلى سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، طـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

٤. تفسير الشعراوى، للإمام: محمد متولى الشعراوى، طـ١، طـ دار أخبار اليوم بالقاهرة.

٥. حياة محمد - صلى الله عليه وسلم-، إميل درومنجم، ترجمة: عادل زعيتر، طـ دار النشر للجامعيين، بدون.

٦. حياة محمد - صلى الله عليه وسلم-، د. محمد حسين هيكل، طـ مكتبة الأسرة عام ١٩٩٧م.

٧. خلق المسلم، للإمام الشيخ/ محمد الغزالى، طـ دار الكتب الإسلامية بالقاهرة، طـ ١٠عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٨. دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، د. محمد أبو شبهة

طـ مكتبة السنة بالقاهرة، طـ ١ عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٩. دلائل النبوة، للإمام البيهقى، طـ دار الكتب العلمية، بدون.

١٠. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، للإمام النووى، طـ مكتبة أسامة الإسلامية بالقاهرة، طـ١ عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١١. سنن أبى داود، للإمام الحافظ سليمان السجستانى الأزدى، طـ دار الفكر العربى بالقاهرة، بدون.

١٢. سنن الإمام الترمذى، لأبى عيسى محمد بن عيسى محمد بن سورة، تحقيق: إبراهيم عطوة، جـ ٤، طـ إحياء التراث العربى.

١٣. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضى عياض اليحصبى، تحقيق: كمال بسيونى زغلول المصرى، دار الفكر ببيروت، طـ دار الفكر ببيروت، طـ ١ عام ١٤٠٣هـ - ١٩٩٥م.

١٤. صحيح الإمام مسلم، طـ دار إحياء الكتب العربية، بدون.

١٥. صحيح ابن حبان، طـ مؤسسة الكتب الثقافية، بدون.

١٦. فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، طـ دار المعرفة ببيروت.

١٧. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطى، طـ دار الفكر بالقاهرة، طـ ٧، بدون تاريخ.

١٨. فقه السيرة للشيخ/ محمد الغزالى، طـ دار إحياء التراث العربى ببيروت بدون.

١٩. فلسفة الاستشراق، د. أحمد سما يلوفتش، طـ دار المعارف بالقاهرة، طـ١ عام ١٩٨٠ م.

٢٠. قصة الحضارة، ول ديورانت، المجلد السابع، طـ مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١م.

٢١. كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة، للإمام الهيثمى، طـ مؤسسة الرسالة بالقاهرة، بدون.
٢٢. المستدرك على الصحيحين، لأبى عبد الله الحاكم النيسابورى، وبذيله التخلص للحافظ الذهبى، طـ دار المعرفة ببيروت.
٢٣. المسند، للإمام أحمد، طـ الكتب الإسلامى ببيروت، بدون.
٢٤. المعجم الكبير، للإمام الطبرانى، طـ دار إحياء التراث العربى.
٢٥. مناقشات وردود، محمد فريد وجدى، تحقيق: د. محمد رجب البيومى، طـ الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، طـ عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢٦. من الذى يغير المنكر، وكيف؟، د. محمود محمد عمارة، طـ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، طـ ٢، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢٧. نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى، عز الدين فرج، طـ مكتبة الإنجلو المصرية، بدون.
٢٨. وحى القلم، مصطفى صادق الرفعى، طـ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

رابعًا الدوريات:

١- دفاع مصطفى صادق الرافعى عن سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- مقال د. عبد الحليم عويس بمجلة الأزهر، عدد جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ، أغسطس ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١٤٤٧
المطلب الأول: ديورانت..... وطريقة التناول:	١٤٥٠
أولًا: ملاحظات توضح اتجاهات:	١٤٥١
الملاحظة الأولى	١٤٥١
الملاحظة الثانية	١٤٥١
الملاحظة الثالثة	١٤٥٢
الملاحظة الرابعة	١٤٥٣
ثانيًا: جو العرض..... والفصول الأربعة	١٤٥٣
المطلب الثانى: شبهات "ول ديورانت" تجاه معالم شخصية النبى ﷺ:	
عرض وتفنيد	١٤٥٥
أولًا: عرض الشبهات	١٤٥٦
ثانيًا: تفنيد الشبهات	١٤٥٦
البعد الأول: حلمه ﷺ:	١٤٥٧
الحلم وما بعد الحلم	١٤٥٧
نماذج من أقواله ﷺ تحث على الحلم	١٤٥٨
من الجانب النظرى إلى الجانب التطبيقى	١٤٦٠
المثال الأول	١٤٦٠
المثال الثانى	١٤٦٢
الرسول ﷺ يعلم عمر الحلم	١٤٦٥
الجانب الوقائى	١٤٦٦
وأخيرًا	١٤٦٧

البعد الثانى: تحليه ﷺ برباطة الجأش ١٤٦٨
الدليل الأول ١٤٦٨
الدليل الثانى ١٤٦٩
التوازن بين الحلم والغضب ١٤٧١
البعد الثالث: ثقة النبى الخاتم بربه، ويقينه بالعصمة الإلهية من أعدائه ١٤٧٢
النقطة الأولى: شجاعة النبوة ١٤٧٣
النقطة الثانية: عصمة الله لخاتم أنبيائه ١٤٧٥
صور من عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ ١٤٧٥
المستشرقة ترد على المستشرق ١٤٧٧
النقطة الثالثة: ديورانت يرد بنفسه على نفسه ١٤٧٧
وبعد ١٤٧٨
المطلب الثالث: شبهة ول ديورانت حول الإسراء والمعراج: عرض وتفنيد . ١٤٧٩
أولًا: عرض الشبهة ١٤٨٠
ثانيًا: تفنيد الشبهة ١٤٨٠
"ديورانت" بين أسلافه وأذنابه ١٤٨٢
ثالثًا: أبعاد الشبهة ١٤٨٤
رابعًا: الإسراء والمعراج حقيقة مؤكدة وبأدلة دامغة ١٤٨٥
الدليل الأول: سؤالان لـــ "ديورانت" ١٤٨٥
الدليل الثانى: حقيقة الإسراء والمعراج ١٤٨٦
الإسراء بين لسانين ١٤٨٦
هل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد؟ ١٤٩٠
الأدلة العقلية على أن الرحلة كانت بالروح والجسد ١٤٩١
الدليل الأول ١٤٩١

الدليل الثاني ١٤٩٢
الدليل الثالث: العلم الحديث يؤيد الإسراء والمعراج ١٤٩٣
وجوه تأييد العلم لإمكان حدوث الرحلة فى زمنها ١٤٩٥
الوجه الأول ١٤٩٥
الوجه الثانى ١٤٩٥
الوجه الثالث ١٤٩٥
الوجه الرابع ١٤٩٥
الرافعى ..... ورأى محترم ١٤٩٦
المعجزة والإيمان ١٤٩٦
الدليل الرابع: نقض الإستدلال ١٤٩٧
د. هيكل ..... ورأى غريب ١٤٩٨
تعليق على رأى د. هيكل ١٤٩٩
أما بعد ١٤٩٩
خاتمة ١٥٠١
المصادر والمراجع ١٥٠٤
فهرس الموضوعات ١٥٠٧

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات